أبو سفيان

كان أبو سفيان ، واسمه صخر بن حرب ، شيخ قريش وسيدها وكبير تجارها ، تفزع اليه في الملمات ، وتحتكم اليه في الخصومات ، وتودعه أموالها ، يتجر بها ويقاسمها شيئاً من ربحها ؛ وكانت عنده راية قريش « العقاب » ، يخرجها اذا حميت الحرب . ولكنه ما كره شيئاً مثل الحرب ، فقد كان محباً للسلم ، آية في الدهاء والحلم ، فإذا جاء ابنه معاوية داهيةً حليماً ، فقد أخذ الحلم عنه ، وتعلم الدهاء منه .

روى صاحب (الأغاني) ان عائشة (رضي الله عنها) بعثت عبد الرحمن بن الحرث بن هشام الى معاوية ، في حجر وأصحابه ، فقدم عليه وقد قتلهم ، فقال له :

— أين غاب عنك حلم أبي سفيان ؟ !

وجاء في سيرة ابن هشام : « كان أبو سفيان رجلاً حليماً مُنْكَراً [1] ، يحب قومه حباً شديداً » .

وقيل لأبي سفيان : ما بلغ بك من الشرف ما نرى ؟

قال : ما خاصمت رجلاً ، إلا جعلت بيني وبينه للصلح موضعاً !

وقال معاوية : « لو ولد أبو سفيان الناس ، لولدهم كلهم أكياساً » !

هذه أقوال تشهد ، كلها ، لأبي سفيان بالحلم والعقل ، ولكننا لا نكتفي بها ، فهناك ما هو أقوى في الشهادة له من الأقوال : الأعمال والمواقف التاريخية !

(1) رجل مُنكَر : أي داهٍ فطِن .

شبكة الألوكة www.alukah.net
هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

قتل هشام بن الوليد أبا أزيهر ـ وكانت بنت أبي أزيهر زوجة لأبي سفيان وأم ابنه يزيد ـ فجمع يزيد بني عبد مناف والمطيبين وندبهم للثأر والقتال ، فاستجابوا له ، فلما بلغ أبا سفيان الخبر ، وكان بسوق ذوي المجاز (انحط سريعاً الى مكة ، وخشي أن يكون بين قريش حدث في أبي أزيهر ، فأتى ابنه وهو في الحديد في قومه من بني عبد مناف والمطيبين ، فأخذ الرمح من يده ثم ضرب به على رأسه ضربة هده منها ، ثم قال له : « قبحك الله ! أتريد أن تضرب قريشاً بعضها ببعض في رجل من دوس ؟ سنؤتيهم العقل إن قبلوه ! » ، وأطفأ ذلك الأمر) .

... ولما خرجت زينب (رضي الله عنها) بنت الرسول (ﷺ) من مكة ، تقصد أباها ، خرج معها حموها كنانة بن الربيع يحميها ، وكان يدفع عنها الناس بسهامه ، (فجاءه ابو سفيان في جلة من قريش ، فقال :

— أيها الرجل ، كف عنا نبلك وسهامك !

فكف ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه ، فقال :

— إنك لم تصب ! خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس اذا أخرجت ابنته اليه علانية على رؤوس الناس ومن بين أظهرنا أن ذلك على ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت ، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمري مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة ، وما لنا في ذلك من ثؤرة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فسلها سراً وألحقها بأبيها !) .

وهكذا كان ... فقد استجاب كنانة لنصح أبي سفيان ، وعاد بزينب فأقامت بمكة ليالي ، حتى اذا هدأت الأصوات ، خرج بها ، آمناً مطمئناً ، ليس بينه وبين أحد شر !

ومن يتتبع مواقف أبي سفيان مع الرسول (ﷺ) يلمح من خلالها كلها ميله الشديد الى السلم ، فهو لم يعتد على الرسول (ﷺ) ولم يسفه دينه ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

كما فعل غيره من كبار قريش ، وكان أقصى ما يطلبه من الرسول أن يكف عن عيب آلهة قريش ، بل يذهب بعض المؤرخين الى أبعد من ذلك ، فيقولون إن أبا سفيان كان يحمي الرسول ، وأن الرسول حين فتح مكة وقال : « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » إنما وفّاه دينه ، فقد كان الرسول يدخل دار أبي سفيان بمكة فيأمن !

لم يخاصم أبو سفيان الرسول « أصالة » — وأستعمل هنا لغة المحاماة ! — وإنما خاصمه « نيابة » عن قريش ، وكان النزاع الأول بينهما ، بعد الهجرة ، حين عاد أبو سفيان من الشام بتجارة عريضة ، ومعه سبعون تاجراً من قبائل قريش كلها ، فتعرض لهم الرسول (ﷺ) فأرسل أبو سفيان الى مكة يطلب النجدة ، فخرج لنجدته وجوه قريش يقودهم عتبة بن أبي ربيعة ؛ وتوزع كبار قريش بين ابي سفيان ، صاحب العير — أي التجارة — وبين عتبة ، صاحب النفير — أي النجدة — ولم يتباطأ عنها إلا بنو زهرة ، فقد آثروا القعود ، فقال فيهم أبو سفيان كلمته المشهورة : (لا في العير ولا في النفير) ! فذهبت مثلاً ، يقال للرجل الذي لا يرى — أو لا يستحق أن يرى — في مقام محمود ، لصغر قدره وحقارة أمره .

طلب أبو سفيان النجدة ، لا ليحارب ، ولكن ليحمي عيره ، فلما كتبت لها النجاة ، أرسل الى القرشيين يقول لهم : « إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم فقد نجاها الله فارجعوا » . فقال أبو جهل : والله لا نرجع ! وتابعه القرشيون ، وأصروا على قتال الرسول (ﷺ) وأصحابه ، فكانت معركة (بدر) ، التي قتل فيها عتبة بن ابي ربيعة ، أبو هند ، زوجة ابي سفيان ، وعمها شيبة ، واخوها الوليد ، وابنها البكر حنظلة بن ابي سفيان ، أما ابو سفيان فلم يشهد هذه المعركة ، لأنه عاد بعير قريش وتجارتها الى مكة ، من قبل أن يلتقي الجمعان ، وفي مكة .. اخبروه بالمصائب التي حلت به وبقومه في (بدر) ، ولم تكن هذه المعركة برأيه ومشورته ، ولكنه كان مطالباً بالثأر لمن شهدوها وقتلوا فيها ،

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وفيهم ابنه وأقرب الناس اليه ، هذا الى أن عتبة ، الذي كان سيداً في قريش مثله ، قد حمله ، بعد موته ، عبء زعامته ودمه .

نذر ابو سفيان ألا يمس رأسه حتى يغزو محمداً ، و (خرج في مائتي راكب من قريش ليبر يمينه) ، وقال : (وهو يتجهز خارجاً من مكة الى المدينة ، يحرض قريشاً) :

كروا على يثرب وجمعهم فإن ما جمعوا لكم نفل
إن بك يوم القليب كان لهم فإن ما بعده لكم دول
آليت لا أقرب النساء ولا يمس رأسي وجلدي الغسل
حتى تبيدوا قبائل الأوس والـــخزرج إن الفؤاد مشتعل

وكانت تلك غضبته ... في الشعر .. ولكنه ، فيما يحدثنا الرواة ، اكتفى من غزوته بالإغارة على ناحية من المدينة يقال لها (العريض) ، حرق نخلاً فيها وقتل رجلاً من الأنصار وحليفاً له ، ثم رجع وصحابه ! .. لم تشف هذه الغارة الهزيلة غليل قريش ، فذهبت الى أبي سفيان ، تسأله أن يجهز بمالها الذي جاء به من الشام حملة رهيبة ، ينتقم بها من المسلمين لأشراف قريش الذين قتلوا في بدر ، ففعل ، والتقى المسلمون والمشركون مرة أخرى في (أحد) ، فكانت الغلبة غير حاسمة للمشركين ، وقتل من المسلمين رجل يسمى «حنظلة بن الراهب» فقال أبو سفيان : حنظلة بحنظلة ! أي أنه اخذ ثأر ابنه حنظلة .. وقال أيضاً : يوم بيوم بدر ! معلناً بذلك انتهاء المعركة ! .. ثم مرّ بأصحاب الرسول (ﷺ) فقال لعمر بن الخطاب : (أنشدك الله يا عمر ، أقتلنا محمداً ؟ فقال عمر : اللهم لا ! وإنه ليسمع كلامك الآن ! فقال : أنت أصدق عندي من ابن قميئة وأبر . «لقول ابن أبي قميئة لهم إني قتلت محمداً» ، ثم نادى أبو سفيان فقال : إنه قد كان في قتلاكم مثل ، والله ما رضيت ، ولا سخطت ، ولا نهيت ، ولا أمرت !) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

وهكذا ... أطفأ أبو سفيان النار التي كانت تشتعل في قلبه .. فلم تكن غايته أن يبيد المسلمين ، وإنما كانت غايته أن يسجل « إصابة » ثأر .. ، على نحو ما يفعل اللاعبون في هذا الزمان ، حين ينهزمون في « إصابة » أو « هدف » فلا يستريحون حتى ينالوا « إصابة » مثلها ، فيساووا خصومهم ويمحوا عار الهزيمة .

كانت بعد ذلك بين الرسول (ﷺ) وبين أبي سفيان معارك ، أو ما تسميه كتب التاريخ معارك وغزوات ، ولكن أبا سفيان ، فيما نرى ، لم يكن يطلب القتال ، وإنما كان يستجيب لرغبات قريش فيخرج بها ، ولكنه لا يلبث حتى ينصح لها بالعودة !

... خرج الى ناحية الظهران ، أو عسفان ، ثم بدا له في الرجوع ، فقال : (يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم الذي نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فاني مرتحل !) .

... ثم كان مسير الرسول (ﷺ) الى مكة . فظهر هنا دهاء أبي سفيان وحبه الشديد لقومه ، فقد عرف أنهم أعجز من أن يصمدوا للمسلمين ، لأن المعارك السابقة علمته أن أهل مكة ليسوا رجال حرب [1] ، وأنه لا خير في مكة إن بقيت جزيرة في بحر من الأعداء يغمرها من كل جانب ، فذهب الى محمد (ﷺ) يصالحه ويأمن لقومه منه . وكان محمد (ﷺ) قد تزوج أم حبيبة ، بنت أبي سفيان ، بعد عودتها من هجرتها الى الحبشة ، وهي مسلمة ،

---

(١) وقد روي في سيرة ابن هشام ان الرسول ﷺ ارتحل ، بعد معركة بدر (حتى اذ كان بالروحاء لقيه المسلمون يهنئونه بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم سلمة بن سلامة : ما الذي تهنئوننا به ؟ فوالله لا لقينا إلا عجائز صلعاً كالبدن المعلقة فنحرناها ! فتبسم الرسول ﷺ ثم قال : أي ابن اخي ! أولئك الملأ) — اي الاشراف والرؤساء .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فكان هذا الزواج مما يطمع أبا سفيان بصداقة محمد (ﷺ) وعفوه . ويقال إن العباس ، عم الرسول ، وكان صاحب أبي سفيان ونديمه في الجاهلية ، هو الذي ذهب به الى الرسول ، فأسلم بين يديه ، وجعل له الرسول شرفاً وذكراً في قومه ، فقال :

« من دخل دار أبي سفيان ، فهو آمن » !

فقال أبو سفيان : « يا رسول الله ، وما تسع داري ؟ »

فقال : « من دخل الكعبة ، فهو آمن » .

قال : وما تسع الكعبة ؟

قال : من دخل المسجد فهو آمن !

قال : وما يسع المسجد ؟

قال : من أغلق عليه بابه ، فهو آمن !

قال : هذه واسعة !

كذلك أمن أبو سفيان لأهل مكة ! ثم رجع الى قومه ، يحذرهم من حرب الرسول ، لقوته وضعفهم ، فدخل الرسول مكة بغير قتال ، وأخذ أهلها يدخلون في الإسلام أفواجاً .

أسلم أبو سفيان وهو في الرابعة والستين من عمره ، وعاش مسلماً أربعاً وعشرين سنة ، فقد مات سنة ٣٢ للهجرة فلم يدرك خلافة ابنه معاوية ، وقد عده كثير من المؤرخين في المؤلفة قلوبهم ، لأن الرسول أعطاه من غنائم حنين ، بل يروى ان أبا سفيان جاء الرسول وقد جمعت غنائم حنين أمامه ، فقال :

— يا رسول الله أصبحت أكثر قريش مالاً !

فتبسم الرسول لقوله ، فقال :

— أعطني من هذا المال يا رسول الله .

فأعطاه أربعين أوقية ومئة من الإبل . ثم قال : ابني يزيد أعطه ! فأعطاه مثلها . ثم قال : ابني معاوية أعطه ، فأعطاه مثلها ، فقال ابو سفيان :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

— انك لكريم ، فداك أبي وأمي ، والله لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، ثم سالمتك فنعم المسالم أنت ، جزاك الله خيراً » .

سواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فنحن لا نستغرب صدورها عن أبي سفيان ، فقد كان تاجراً ، محباً للمال ، وقد ذهبت بعد الإسلام زعامته وتجارته ، فان طمع بشيء من المال يحفظ به مكانته في قومه ، لم يكن ذلك كبيراً عليه ؛ وكان الرسول يوقره ، قيل إنه استأذن مرة على الرسول فحجب قليلاً ، ثم أذن له ، فلما دخل قال : ما كدت تأذن لي حتى تأذن لحجارة الجلهتين — قال أبو عبيدة : الصواب الجلهتين وهما جانبا الوادي — فقال (ﷺ) : يا أبا سفيان أنت ، كما قيل : كل الصيد في جوف الفراء . يتألفه على الاسلام . قال ابو العباس : معناه اذا حجبت فنعم كل محجوب ، يضرب لمن يفضل على أقرانه)[1] .

وبعد .. قد يكون ابو سفيان من المؤلفة قلوبهم ، ولكنه ، بعد أن أسلم ، حسن اسلامه ؛ وشارك في بعض غزوات الرسول ، وفقد احدى عينيه ، ثم فقد عينه الأخرى في موقعة اليرموك ، وتدلنا أقواله في واقعة اليرموك على صدق اسلامه ، وشجاعته ، وصبره ، ثم نحن نستدل منها على شيء آخر ، وهو أن روحه المسالمة حين يحارب العرب ، تنقلب الى روح مقاتلة ، عنيفة ، حين يقف أمام الروم ، فقد كان يشعر أنه يقاتل عن العرب والاسلام ، لا عن الإسلام وحده ، ولذلك روى لنا (الطبري) أن ابا سفيان كان يسير فيقف على الكراديس ، فيقول : الله الله ، إنكم ذادة العرب وأركان الاسلام ، وإنهم ذادة الروم وأنصار الشرك .

أما عاطفته القبليه أو عصبيته فما نظن الاسلام نزعها من نفسه ، روى لنا الجاحظ في كتابه « المحاسن والأضداد » أن عمر بن الخطاب سمع ، وهو خليفة ،

(١) الأمثال للميداني ، الجزء ٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صوتاً ولفظاً بالباب ، فقال لبعض من عنده : اخرج فانظر من كان من المهاجرين الأولين فأدخله . فخرج الرسول فوجد بلالاً وصهيباً وسلمان فأدخلهم ، وكان أبو سفيان بن حرب وسهيل بن عمرو في عصابة من قريش جلوساً على الباب ، فقال أبو سفيان : يامعشر قريش ، أنتم صناديد العرب وأشرافها وفرسانها بالباب ، ويدخل حبشي وفارسي وروميّ ! فقال سهيل : يا أبا سفيان أنفسكم فلوموا ، ولا تذموا أمير المؤمنين ، دعي القوم فأجابوا ودعيتم فأبيتم ، وهم يوم القيامة أعظم درجات وأكثر تفضيلاً !

فقال ابو سفيان : لا خير في مكان يكون فيه بلال شريفاً .

الدكتور منير العجلاني

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net